أسئلة الهويّة والانتماء في روايّة ساق البامبو لسعود السنعوسي

Questions of the Identity and the Belonging in the Novel of "the Stem of Bamboo" of Saoud Assaanoussi

أ. بولحواش سعاد♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال:DOI 2025 10.33705/0114-027-004-021

تاريخ الاستلام:14-12-2024-تاريخ القبـول:16-07-2025-تاريخ النّشر: 15-12-2025

ملخّص: إنّ القول بالهويّة يعني القول بمفهوم الاختلاف لأنّ الهويّة هي مجموعة من السّمات أو الخصائص التي تمثّل كينونة الشّيء أو الشّخص عن غيره المختلف عنه، كما أنّ الهوّيّة انطلاقا من هذا المفهوم تصبح معطى متحوّلاً أو غير ثابت خاضع للزمان أو المكان أو المحيط الذي يتدخّل في بلورته وإعطائه شكلا مميزا، ويهدف هذا المقال لتوضيح حقيقة الهوّيّة التي يبحث عنها بطل الرّوايّة هوزيه وسط الحيرة والشّك الذي يعيشه وما تعانيه شخصيته في بحثها المستمر عن ماضيها وحاضرها وشعورها بالاغتراب الاجتماعي والنّفسي وهذا ما زاد من شعوره بالتّشتت في تحديد انتمائه فهو يعيش بين اسمين وبلدين وديانتين فالرّاوي يبحث عن ذاته التي تهيم وسط التّيه الذي يحيط به من كلّ جانب، ولقد وظّف الكاتب في الرّوايّة لغة سرديّة تناسبت مع الوصف المفصّل الذي قدّمه الكاتب لكلّ من ظروف وتفاصيل الحياة في الفلبين والكويت والتي كانت سببًا في تعرّفه على ذاته.

♥المركز الجامعي عبد الحفيظ بو الصوف ميلة، الجزائر، البريد الإلكتروني: boulahouchesouad@gmail.com، (المؤلّف المرسل).

كلمات مفتاحيّة: اغتراب؛ غياب؛ انتماء؛ ذات؛ حلم.

Abstract: Talking about identity means talking about the conception of the distinction because the identity is a series of signs and features that represent the entity of the thing or the person discordant from another.According to this concept, it becomes a variable and precarious offer which depends on time, place and the society that intervene to give it a distinctive form. This article aims to clarify the reality of the identity asked by the hero of the novel "Hozih" who, confused and incredulous in his life, suffers because of the persistent search of his past and present and of his feeling full of the social and the personal solitude leads to his sensation of dispersing in identifying his belonging as long as he lives with two names, two countries and two religions. The narrator searches himself within the wandered world around him. The writer uses, in the novel, a selected language that corresponds with the detailed description of the circumstances and the details of life in Philippine as well as Kuwait, the cause of discovering himself.

Keywords the solitude; the absence; the belonging; the self; the dream.

1. مقدّمة: روايّة ساق البامبو للكاتب سعود السنعوسي تطرح العديد من القضايا والأسئلة المتعلّقة بواقع المجتمع العربي عامة ولعلّ أهم قضيّة تطرحها هي إشكاليّة الهويّة والانتماء وسأسعى في هذا المقال إلى تتبع تجلّيات الهويّة وحضورها في الخطاب السّردي ضمن أحداث الرّوايّة وشخوصها، فلا يمكن أن نتحدث عن أي كيان مادي أو بيولوجي دون الحديث عن هويته أو عن أصله الذي انحدر منه، فالكتابة هي وسيلة لإثبات الهويّة وفرض لوجودها لأنّ السّرد هو في حدّ ذاته تفرّد وإثبات للخصوصيّة التي تصنع الهويّة. كما أنّ الانتماء

هو الارتباط بالمكان الذي يتدخل في بلورة مفهوم الهويّة ورسم كيانها وحدودها فالفرد الذي ينتمي لدولة ما أو وطن ما يعتبر مواطنا من مواطنيها وله حقوق وواجبات تتحدّد بموجب هذا الانتماء. فهل وجد بطل الرّوايّة ذاته وهويته وإلى أي وطن ينتمي الكويت أم الفلبين وما هي المعايير والحدود التي حدّد بها انتماءه؟ كثيرة هي الأسئلة التي تطرحها روايّة ساق البامبو وسأحاول الإجابة عما يتعلق برصد الهوّيّة المفقودة التي يبحث عنها بطل الرّوايّة من خلال عرض بعض المواقف والأحداث وقراءتها والتي تبرز تفكّك الهويّة وتشظّيها تحت ضغط واقع رهيب عاشه البطل منذ ولادته.

2- قراءة في العنوان "ساق البامبو": إنّ أوّل ما يلتقي به القارئ في الرّوايّة هو العنوان وهو لوحة إشهاريّة مختصرة تضمّ العديد من التّساؤلات والإجابات في الوقت نفسه والعنوان هو مرسلة لغويّة تتصل لحظة ميلادها بحبل سرّي يربطها بالنص لحظة الكتابة والقراءة معًا فتكون للنص بمثابة الرّأس للجسد نظرا لما يتمتع به العنوان من خصائص تعبيريّة وجماليّة كبساطة العبارة وكثافة الدلالة وأخرى استراتيجيّة إذ يحتلّ الصدارة في الفضاء النصي للعمل الإبداعي[1].

وعنوان الرّوايّة "ساق البامبو" علامة سيميائيّة مختزلة معبّأة بالعديد من الدّلالات الإيحائيّة، تطرح إشكاليّة الهوّيّة ومصير البطل المشتت بين بلدين وثقافتين وديانتين (هوزيه أو عيسى) ولد في الكويت من أب لعائلة ثريّة ولها درجتها الاجتماعيّة لينتقل في شهره الثاني إلى الفلبين بلد أمه ويعيش فيه مع أمّه جوزافين حياة صعبة مليئة بالحاجة والفقر ليقرّر عند بلوغه سنّ الرّشد العودة إلى بلاد أبيه أو بلاد الحلم كما صورتها له والدته بحثا عن ذاته وهويته.

فالعنوان هو "أمير الدوال"[2]، كما يقول رولان بارث (Rland Barthes) وهو أوّل عتبة نصيّة بعد الغلاف تقع عليها عين القارئ والعنوان يعكس شخصيّة البطل عيسى الطاروف الذي عاش في أرض جدّه مينذوزا والد أمّه

وهي مكان شمال مانيلا في الفلبين وأرض مينذوزا مليئة بأشجار البامبو والموز والأناناس والبابايا كأنّها جنّة خضراء. لكن عيسى سرعان ما انتقل إلى الكويت عند ما بلغ سن الرّشد تنفيذا لرغبة أبيه راشد الطاروف ليتحقق الحلم الذي رسمته له والدته جوزافين بأنّ الكويت بلاد العجائب وهي تشبه الجنّة، ليصطدم بواقع مريرْ تمثّل في جدّته التي ترفض الاعتراف به وعماته اللّواتي انقسمن بين مؤيّد ومعارض لقبوله في العائلة.

عاش عيسى في الفلبين وعرف ثقافة شعبها وعاداتهم وتقاليدهم إلاّ أن صعوبة الحياة فيها فرضت عليه الرّحيل عنها لتحقيق حلم أمه في العودة إلى الكويت والاستقرار فيها فالرّاوي يشبه سيقان أشجار البامبو التي تنمو أينما زرع وأشجار البامبو تتميز بسيقانها الطويلة وجذورها الضاربة في عمق الأرض. فعلى الرّغم من تشتّت الرّاوي وتيهه الدائم في بحثه عن هويته إلاّ أنّه يعترف بأنّ هويته ليست ملْكا لأحدْ ولا يستطيع أحدٌ أن يقرّرها عنه أو يعترف بها فيكفي أن يؤمن هو بذاته ويعترف بهويته وبانتمائه إلى حقل فكري معين.

فقد تشكّلت الهويّة السرديّة من خلال روايته المتفردة والمتميزة.

يقول عيسى بعد أن قرّر العودة إلى الفلبين بلاد أمّه: الذنب ذنب أبى الذي أحضرني إلى أرضكم بعد سنوات عدّة قضيتها هناك، أراد أن يزرعني من جديد متناسيا أنّ النباتات الاستوائيّة...لا تنمو في الصحراء"[3]. فاختيار الكاتب لعنوان الرّوايّة جاء متطابقا مع سير أحداثها فهناك تطابق بين نبات البامبو وبطل الرّوايّة (عيسى الكويتى/هوزيه الفلبيني).

فجوزافين لم ترد بقاء عيسى في الفلبين ليضرب بجذوره في أرضها وقد لاحظ عيسى ذلك على أمه لدرجة أنه طرح هذا التّساؤل: "لماذا كان جلوسي تحت الشّجرة يزعج أمي"[4]. وقد شبه البطل نفسه بساق البامبو، فعندما كان الجميع يجهل ما حلّ براشد والد عيسى بعد أن وقع في أسْر العدو يتساءل

عيسى: "ماذا لو تحقّق الوعد؟ كنت أتساءل... ماذا لو عاد ذلك الذي يدعى راشد؟ أمصير شجرة البامبو ينتظرني؟"[5].

2-الهوّيّة وتحدّي الرّاهن: إنّ الحديث عن الهوّيّة هو الحديث عن إثبات الذات والاعتراف بقدرتها على تحدي الرّاهن أو الواقع، فالهويّة كما عرفها بول ريكور (Paul Ricoeur) هي: "وجودٌ وماهيّة غير أنّها لا تمثل جوهرا ثابتا ومتعاليا على الزمان والمكان بل هي حالة متحرّكة ومتداخلة إنّها صيرورة بالمعنى المجازي والتّاريخي الذي يتيح تضمينها إشكاليات وأزمات هي لازمة لها، فالهوّيّة هي كلّ من العلاقات والصلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والأخلاقيّة والثّقافيّة ترتبط باللّغة والتّاريخ والمصير الواحد والمصالح المشتركة والمحدّدة بأبعادها وعلاقاتها التي تتمثل في علاقة الأنا بالواقع في سيرورته ،وعلاقة الأنا بالآخر، غير أن هذه الأبعاد ليست انشطارات منعزلة بل تحكمها علاقة جدليّة مترابطة ومتحرّكة[6].

وتطرح الرّوايّة مجموعة من التّحدّيات بتضافر الأحداث والوقائع لإنتاج أسلوب سردي يعكس قدرة الكاتب الإبداعيّة. فالتّحدّي الأوّل تمثل في والدة عيسى" جوزافين"التي عاشت واقعا مريرا مع أبيها ميندوزا بتحدّي والدها الذي أراد بيعها لتصبح بائعة هوى وتنفق عليهم أموالها كما فعل مع أختها آيدا، إلاّ أنّ جوزافين اقترضت مبلغا من المال من جماعة المومباي لتسدّد به ثمن تعاقدها مع مكتب للعمالة المنزليّة وتمكنت من السفر إلى الكويت لتعمل كخادمة في منزل عائلة الطاروف في الكويت مقابل أن لا تتحوّل إلى امرأة ليل تبيع جسدها بثمن بخس كما حدث مع أختها التي توقفت عن العمل بعد أن حملت سرّا وأخفت أمر حملها عن أبيها لكي لا يجعلها تجهض وكان الحمل فرصتها الوحيدة للتوقف عن العمل.

وتمثل التّحدّي الثاني في علاقة راشد الطاروف وزواجه بالخادمة جوزافين بالرّغم من كونه الابن الوحيد في عائلة الطاروف، فبعد أن وصلت جوزافين إلى

بيت الطاروف وهي عائلة مكونة من امرأة كبيرة في منتصف الخمسينيات من عمرها وهي السيدة "غنيمة" جدة عيسى وثلاث بنات وولد هو راشد الطاروف لتصطدم جوزافين بواقع مرير آخر تمثّل في سوء معاملة السيدة غنيمة لها لتكون هذه المعاملة السيئة سببا ليتعاطف معها راشد ويحنو عليها لتتطوّر هذه العلاقة فيما بعد إلى علاقة حب وبذلك كسرت جوزافين وراشد جميع الأعراف والتّقاليد السّائدة في المجتمع الكويتي ومنها ظاهرة الطبقيّة.

وتزوج راشد الطاروف من جوزافين زواجا عرفيا دون علم عائلته بعد اقتناعه بأنّ لا سبيل للوصول إليها دون زواج وحملت جوزافين من راشد وأخفت أمر حملها عن راشد مخافة أن يجبرها على إسقاطه، "كان زواجنا غريبا لا يبدو حقيقيا خصوصا بعد ما نال مراده ولهذا السبب احتفظت بك سرا في أحشائي خشيّة أن يدفعني لإسقاطك إذا ما علم بالأمر"[7]. كما تحدّت جوزافين راشد عندما لمّح لها بإسقاط الولد حين أخباره بحملها في مرحلة متقدمة، وتحدّى راشد بدوره والدته غنيمة عندما رفض طلبها بعودة جوزافين إلى الفلبين وغادر راشد وجوزافين البيت بعد أن طردتهما السّيدة غنيمة.

3-الحلم وخيبة الأمل: عكست شخصيّة البطل كلّ معاني التّفاؤل والطيبة والتّسامح والطموح فقد كانت حياته كلّها جهاد لإثبات ذاته وهويته الضائعة، إلاّ أنّه على الرّغم من اصطدامه بالواقع المختلف عن تصوره له، فقد حاولت جوزافين أن تزرع حبّ الكويت وحبّ راشد في قلب ابنها دائما لكن عيسى لم يتعرّف على أبيه ولم يحمل له أيّة مشاعر وربما كان الشّيء الوحيد الذي كان يشجع هوزيه على السفر إلى بلاد أبيه (الكويت) هو صورة الجنّة التي صورتها له أمّه وحياة الرّفاهيّة والثراء التي سيعيشها مع عائلة أبيه، ولكن حلمه وحلم والدته لم يتحقّقا للأسف بعد رفض العائلة له فحين وصل إلى الكويت وجد نفسه محاطا بالكره والرّفض.

إنّ بلاد العجائب تختلف كليّا عن الصورة التي كان يراها هوزيه في مخيلته في الفلبين، فصورة الكويت الحقيقيّة صورة خاطئة وغير ملائمة لما كان يراه في أحلامه. وعلى الرّغم من تلاشي أحلام عيسى عن الكويت إلاّ أنّه بدأ يرسم أحلاما جديدة في مخيلته نعم إنّها الأحلام التي اكتشف بها ذاته، "في الفلبين كنت أنتظر تحقيق حلمي في الكويت، وفي الكويت بدأ يتكشّف لي حلم جديد.. حلم بعيد"[8].

فالحلم الذي كبر في الفلبين سرعان ما تلاشى في الكويت فعيسى أحب الفلبين وأحب أرضها على الرّغم من كراهيّة جده له، فسبب هذا الحب هو شعوره بالانتماء ولولا الحياة الصعبة التي عاشها في الفلبين لما سافر إلى بلاد أبيه الكويت أو بلاد العجائب كما يسميها، أو الجنّة التي رسمتها جوزافين في مخيلته" كنت إذا ما انبهرت بمشاهدة إعلان لسيارة باهظة الثمن، تقول والدتي: "في الكويت هناك.. يشتري لك راشد واحدة منها "[9].

4-تعدّد الأسماء: إنّ الاسم هو الوجه الأوّل من أوجه الهوّيّة، وقد اختار الكاتب اسمين للبطل للدلالة على التّفكك والشّك الذي تعيشه الشّخصيّة، "اسمي (jose) هكذا يكتب. ننطقه في الفلبين، كما في الإنكليزيّة، هوزيه. وفي العربيّة يصبح، كما في الإسپانيّة، خوسيه، وفي البرتغاليّة بالحروف ذاتها يكتب، ولكنّه ينطق جوزيه. أمّا هنا، في الكويت فلا شأن لكل تلك الأسماء باسمي حيث هو.. عيسى، كيف ولماذا؟ أنا لم أختر اسمي لأعرف السّبب كلّ ما أعرفه أنّ العالم كله قد اتفق أن يختلف عليه"[10]. فافتتاح الرّوايّة بهذه العبارات لم يكن مصادفة بل كان مقصودا للدلالة على التّشظي الذي تعيشه الشّخصيّة في بحثها عن هويتها انطلاقا من الاسم.

إنّ الرّوايّة خطاب سردي مزج فيه الكاتب بين قوّة التّعبير وعمق دلالة السّرد فخوسيه اسم اختارته والدة الرّاوي وهو بطل قومي فلبيني اتصف بالحكمة والقوة والشّجاعة والمثابرة والتّأمل، أمّا اسم عيسى فقد اختاره والده (راشد)، وله دلالة

دينيّة وهو اسم المسيح عيسى عليه السلام وهناك تشابه كبير بين البطل وشخصيّة البطل القومي الفلبيني والمسيح عيسى، فالبطل القومي خوسيه ريزال عرف بالشّجاعة والجهاد والكفاح وعدم الاستسلام بسهولة في الدّفاع عن الفلبين ضدّ الاحتلال، أمّا بطل الرّوايّة فهو شخصيّة مثابرة شجاعة اعتمد على نفسه في تحدي فقره ورسم أسلوبا لحياته في محاولة التّعرف على ذاته واكتشاف هويته التي يشعر بفقدانها. بينما الاسم العربي "عيسى" فهو اسم النبي عيسى عليه السلام فيلتقي مع شخصيّة البطل في عدّة نقاط منها:

-عيسى عليه السلام نبي الله في الدين الإسلامي وهو اليسوع أو المسيح عيسى في الديانة المسيحيّة.

-المسيح عيسى ابن مريم العذراء أو عيسى عليه السلام نبي الله عاش من دون أب رفضه قومه وأنكروا نبوته واتهموا أمه بالبغاء ونبذوها، ولكن هذا لم يمنع من تبليغ الدّعوة أو الرّسالة الإلهيّة التي كلف بها والدّعوة إلى دين الحقّ وإخراج النّاس من الظلام إلى والنّور.

-هوزيه بطل الرّوايّة عاش من دون أب ووالدته هي من قامت بتربيته بمفردها فعندما ولد نبذته جدّته غنيمة ولم تعترف به، ثم تخلى عنه والده بعد ولادته مباشرة ليرحل مع والدته إلى الفلبين أين عاش مع جده مينذوزا الناقم على الحياة، وكلّ من حوله بمن فيهم عيسى فلا طالما كره مينذوزا حفيده هوزيه.

ومن جهة أخرى إنّ الأنبياء والرّسل تميّزوا عن البشر بقوّة إيمانهم وعلاقتهم التي تربطهم بخالقهم عن طريق الوحي. وعيسى عاش نفس الظروف لأنّه تعرّف على ذاته بنفسه وتعرّف على خالقه بطريقته الخاصة لأنّه آمن بنفسه ووثق في قدرته على إيجاد طريقه.

5-الغياب: لقد أخذ الغياب شكلا بارزًا وقد تميّزت شخصيات الرّوايّة بمعاناتها وشعورها بالغياب على اختلاف مظهره فالشّخصيّة هي: "أحد الأفراد الخياليين أو الواقعيين الذين تدور حولهم أحداث القصة أو المسرحيّة"[11]. وهي

"مجمل السّمات والملامح التي تشكل طبيعة شخص حي، وهي تشير إلى الصفات الخلقيّة والمعايير والمبادئ الأخلاقيّة ولها في الأدب معان نوعيّة أخرى"[12].

ويمكن أن تكون الشّخصيّة "مؤشرا دالا على المرحلة الاجتماعيّة والتّاريخيّة التي تعيشها وقد تعبر عنها حيث تكشف عن نظراتها الواقعيّة "[13]. كما يمكن اعتبارها "خيط هاد يمكّن من فكّ مزيج المكرّرات ويسمح بتصنيفها وترتيبها"[14]. حيث توصف على أنّها "كل مشارك في أحداث الرّوايّة سلبا أو إيجابا، أمّا من لا يشارك في الحدث، فلا ينتمي إلى الشّخصيات، بل يعدّ جزءا من الوصف"[15].

إنّ الشّعور بالاغتراب هو نوع من الغياب لأنّه يترجم علاقة انفصاليّة بين الواقع والحلم فبعد أن بنى هوزيه أحلاما جميلة في مخيلته عن الكويت وعن عائلة أبيه اصطدم بواقع نقيض وسّع فجوة الاغتراب حتى وهو وسط بلده ومع عائلته، فهو: "الحالات التي تتعرّض فيها وحدة الشّخصيّة للانشطار أو الضعف أو الانهيار بتأثير العمليات الثقافيّة والاجتماعيّة التي تتّم داخل المجتمع "[16]. من أقسى أنواع الغربة ما عاشه هوزيه وسط أهله فأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه[17].

وقد عانى عيسى كثيرا بسبب غيابه عن الفلبين موطن الصّبا والفتوّة وهذا ما جعله يشتاق ويحنّ إلى وطنه الأوّل وتمثلت صورة الغياب في "مفارقة الوطن الذي ارتبط به الفرد ارتباطا عاطفيا منذ ولادته حتى أصبح منتميا له أشدّ انتماء ويظهر هذا الارتباط في حالة الابتعاد عن الوطن، فالإنسان الذي يبتعد عن وطنه ومجتمعه يشعر بحنين إليهما ويظلّ مرتبطا به روحًا وفكرًا"[18]، كما أنّ الارتباط الرّوحي والفكري القوي هو ما جعله يقرّر العودة إليه بعدما استنفد كلّ محاولاته في جعل عائلته من أبيه تقبله وتعترف به. وقد قدمت الشّخصيات صورا متعدّدة للغياب والغربة منها:

5-1 **شخصيّة البطل(عيسى/هوزيه):** لقد عاش عيسى باحثا عن هويته ضائعا بين اسمين وبلدين وديانتين، فالسفر مثّل رحلة البحث عن الذّات وإثباتها وقد وظف الكاتب كلمة الرّحيل مرتين في الرّوايّة: فالرّحيل الأوّل كان رحيلا ذا طابع خاص مثل رحيل عيسى من جسد والده إلى رحم والدته: "في حين كنت أنا في الرّحيل الأوّل، تاركا جسد والدي، مستقرًا في أعماق والدتي"[19]. أمّا الرّحيل الثّاني فكان سفر عيسى مع والدته جوزافين إلى الفلبين تحت ضغط السيّدة غنيمة على راشد. "وبعد أيام كان الرّحيل الثاني، ولكن هذه المرّة.. كان رحيلا من بلد والدي إلى بلد والدتي"[20]. هذا الرّحيل كان له أثره في اكتشاف الذات والهوّيّة المفقودة.

ومن صور الغياب ما وقع له مع ابنة خالتّه ميرلا فهوزيه أحبّ ميرلا ابنة خالته آيدا وشعر بغيابها عن المنزل بعد أن تركت منزل والدتها لتعيش مع صديقتها ماريا، وازداد شعور عيسى بغيابها وافتقادها عند رحيله إلى الكويت فعلى الرّغم من كونه في بلده الذي ولد فيه وبين أفراد عائلته من أبيه إلاّ أنّه شعر بالوحدة وافتقد والدته كثيرا وكلّ عائلته في الفلبين خاصّة ميرلا ويوضح هوزيه ذلك بقوله: "كم كنت أفتقدها وأنا هناك بعيدا عن هنا"[21]. فميرلا هي شكل من أشكال الغياب، إنّ شوقه لعائلته وميرلا زاد من شعوره بالغربة في الكويت التي كلّما حاول الغوص فيها شعر بالتيه وبالغربة أكثر من ذي قبل.

5-2 **ميرلا:** ميرلا هي ابنة خالة عيسى وهي فتاة متمرّدة وقوّيّة في شخصيتها تركت والدتها والبيت الذي تربت فيه لتنتقل إلى العيش مع صديقتها ماريا، وقد كانت ميرلا تعيش في ضياع ومعاناة لأنّها لا تعرف هوّيتها الحقيقيّة فهي ابنة غير شرعيّة مجهولة الأب والأصل. فهي ترى نفسها شخصاً ميّتًا بجسد حي وهذا ما قالته في رسالتّها الإلكترونيّة الثّانيّة لعيسى: "آيدا التي تحب والتي تناديها بماما، هي الأخرى ميتة منذ زمن، منذ مجزرة الدّيوك التي سمعنا أنا وأنت بها، بعد أن كبرنا. أنا ولدت ميتة بجسد حي. أرضعتني آيدا الموت

من ثديها الذي أكرهه. الذي استباحته كفوف وأفواه رجال قذرين لست أدري أيّهم أبي"[22].

تلاشى صبر ميرلا بعد أن وصلت إلى مرحلة متقدّمة من الحيرة والضّياع ظروف حياتها الصعبة بالإضافة إلى كونها ابنة غير شرعيّة زاد في اتّساع هوّة التّوتر والاضطراب النّفسي الذي تعيشه، ممّا جعلها تكره كلّ الرّجال وتفكر في الانتحار،" هل تعتقد أنّ الديك الأوروبي منحني الحياة باحتلاله جسد آيدا؟ لن أسمح له بتغيير عبارة ريزال: الموت هو العلامة الأولى للحضارة الأوروبيّة عند إدخالها للمحيط الهادي "[23].

فالكراهيّة والتّشاؤم يطبعان شخصيّة ميرلا، فقد كرهت أمها وكرهت أباها الأوروبي الذي تجهله، هذه الكراهيّة التي طالتّ كلّ الرّجال إلاّ عيسى ابن خالتّها جوزافين، فقد عاشت ميرلا القهر والعذاب والتّشتت والضّياع وقد أخبرت عيسى عندما كان في الكويت في رسالة الكترونيّة بما تعانيه من وحدة وضعف: "اثنان وعشرون عاما لم أعثر فيها على نفسي لا أزال أبحث عني ولم أجدني"[24].

إنّ ميرلا تنكر أصولها الأوروبيّة وتحمل حقدا شديدا لوالدها ا الذي تجهل من هو وتكره كلّ الأوروبيين،"حين وشمت ساعدي بMM، قبل سنوات، كنت أخاتل نفسي، الجميع وأنت أحدهم، فسّر الأمر على أنّي جمعت حرفينا أنا وماريا ولم يدرك أحد سواي بأنّني كنت أنسب نفسي عنوة إلى جدّ يمقتني.. ميرلا مينذوزا"[25]. إنّ إنكار ميرلا لأصولها الأوروبيّة ومحاولة نسب نفسها لجدّها هو إثبات للذات وإعلان عن هوّيّة جديدة تتخلّص بها من شعورها بأنّها تنتسب إلى الأوربيين وتقنع نفسها بانتمائها إلى جدّها مينذوزا.

3-5 الجدّ مينذوزا: مينذوزا هو شخصيّة غير مسؤولة أمضى حياته يعيش على المقامرة في مصارعة الدّيوك، لم يكن مينذوزا يحبّ أحدا ولا يأبه سوى للمال الذي يقدّم له من طرف بناته. كره مينذوزا هوزيه كثيرا ولم يتوقف الكره

عند هوزيه فقط فطالما كره مينذوزا كلّ من حوله بمن فيهم ميرلا ابنة آيدا، ولم يتوقّف هوزيه عن التّساؤل عن سبب كره جده له ولميرلا ليكتشف فيما بعد أن جدّه قد كره مجهولي الآباء لأنّ الجدّ مينذوزا عاش بدون أب فهو كذلك يعتبر من مجهولي الآباء، ليس هذا فقط فقد كره أمّه كثيرا ولم يعترف بها فوالدته هي العجوز إينانغ تشولينغ التي كانت تعيش في كوخ بجانب بيت ابنها مينذوزا.

كانت إينانغ تشولينغ عجوزا في الثمانينات من العمر يخاف منها صغار الحيّ ولم يعرف هوزيه وميرلا هوّيتها الحقيقيّة إلاّ بعد موتها فالعجوز إينانغ تشولينغ عاشت طيلة حياتها على أمل أن يسامحها ابنها ويعطف عليها كباقي الأبناء، لكن"ماتت المسكينة بعد أنّ طال انتظارها ماتت بموت أملها الوحيد "[26]. فأملها لم يتحقّق فقد مات ابنها ناقما على والدته، مات مع شعوره بالوحدة والضعف.

5-4 شخصيّة راشد الطاروف: راشد الطاروف هو والد عيسى، وقد كان رجلا شغوفا بالقراءة والكتابة فطالما كرّرت والدته السيّدة غنيمة على مسامعه "أخشى أن تغيّب الكتب عقلك"[27]، راشد هو الولد المدلّل والوحيد لعائلة الطاروف يحمل اسمها ويحفظ سلالتّه من الضياع. وقد كان لراشد مشروع روايّة لم يكتمل فبعد أن اختفى راشد في حرب الخليج وعثروا فيما بعد على جثّته، عكفت ابنته خولة على قراءة مشروع روايته عدّة مرات، أرادت خولة أن تتمّم ما أراد راشد قوله عن الكويت، أو كيف كان يراها لتستطيع إكمال روايّة أبيها.

وبينما كانت خولة تعيد قراءة مشروع الرّوايّة سعيا منها لفهمها وإتمامها صرّحت لأخيها عيسى بفكرة انتبهت لها، فقد كتب راشد في صفحة الإهداء:" إليكما.. الكويت.. وأنت" فقد كانت تعتقد خولة أنّ الضمير "أنت" يعود على والدتها التي تزوجها بعد ما طلّق جوزافين والدة عيسى، لتكتشف فيما بعد أنّ والدها يقصد الفتاة التي أحبها حين كان طالبا جامعيا ورفضت والدته زواجه

منها. فعيسى ليس الوحيد الذي يعيش في غربة وهو في الكويت في بلد أبيه بل راشد كذلك كان يعيش في غربة من نوع آخر، فراشد فقد أباه ولم يتزوّج بالفتاة التي أحبّها بسبب المجتمع وسلطته فهو من عائلة الطاروف عائلة راقيّة في المجتمع الكويتي ولا يملك أي فرد فيها الحرّيّة في التّصرف كما يشاء فهم مقيّدون بعادات وأعراف تحدّد سلوكاتهم.

6-الهويّة والدين: إنّ مفهوم الهويّة لا يتحدّد إلاّ من خلال الدّين أو المعتقد الذي يعتقد به الفرد أو المجتمع أو الدولة. والدّين هو أحد ملامح الهوّيّة لأنّ "الملامح الحقيقيّة للهوّيّة هي تلك التي تنتقل بالوراثة داخل الجماعة، وتظل محتفظة بوجودها وحيويتها مثل الأساطير والقيم والتّراث الثّقافي"[28]. فعيسى مشتت بين اسمين (هوزيه/عيسى) وديانتين (المسيحيّة/الإسلام) وبلدين (الفلبين/ الكويت). فاختيار الدّيانة الصحيحة أمر قد أدخل عيسى في تيه كبير هل يتّبع ديانة أبيه أم ديانة والدته، بالإضافة إلى اطلاعه على تعاليم البوذيّة. فوالدة هوزيه كان لديها أمل كبير في عودة ابنها إلى الكويت يومًا ما ليعتنق الإسلام لذلك لم تلقنه كلّ مبادئ المسيحيّة في الفلبين.

كان عيسى في الفلبين يتساءل كثيرا عن المسيحيّة وهل يقبل بها كديانة وهو يعرف أنّ والده مسلمْ، وهل هو مسيحي خاصة بعدما تكفلت خالتّه آيدا بتلقينه بعض مبادئ المسيحيّة، وقد أحبّ عيسى المسيح كثيرا، "أحببت المسيح كثيرا حتى أصبحت أراه في أحلامي مبتسما يربت على رأسي بكفٍ لا تزال بها أثر المسمار الكبير الذي اخترقها يوم تثبيته في الصليب فهل أكون مسيحيا؟ ولكن. ماذا عن خلواتي التي أجد بها ذاتي. ورغبتي الدائمة في التّوحّد مع الطّبيعة من حولي"[29]. فعيسى لا يؤمن بالمسيح، وإن كان يحس بأنّه يحبه فهذا الإحساس ممزوج بالشّكّ، لأنّه لا يمكن أن يكون مسيحيا، ولكنّه يشكّك في إيمانه في الوقت نفسه؟

وحين ترك عيسى أرض جدّه مينذوزا سافر إلى مانيلا تشانيا تاون، والتّقى بصديقه تشانغ الذي يعمل بائع موز وهو بوذي، تعرّف منه على بوذا وتعاليم البوذيّة، أين تعمّق شكّه حوْل الدين الذي يتبعه المسيحيّة أو البوذيّة أو الإسلام خاصّة بعدما أحبّ تعاليم البوذيّة كثيرا، "أتراني بوذيا من دون أن أعلم؟ وماذا عن إيماني بوجود إله واحد لا يشاركه أحد.. صمد لم يلد ولم يولد؟ أمسلم أنا دون اختيار؟ ماذا أكون. إنّه قدري أن أقضي عمري باحثا عن اسم أو دين ووطن رغم ذلك، لم أنكر لوالديَ فضلهما في مساعدتي، من دون نيّة منهما في تعرفي على خالقي.. بطريقتي"[30].

إنّ شعور عيسى بالتيه والضّياع في التّعرف على حقيقة ديانته كان له فضل كبير في معرفة خالقه بطريقته الخاصة، فلو لم يخلق وسط هذه الظروف لما عرف الطريق الصحيح الذي يسلكه، لأنّه يؤمن بأنّ علاقتنا بالأشياء تتوقف على مدى فهمنا لها. فبعد أن قرأ عيسى عن تعاليم البوذيّة، حياة بوذا، تلاميذه وجلوسه بوضعيّة اللوتس تحت شجرة التين وقصّة التّنوير، ربط بين بوذا وبينه عندما كان يجلس تحت شجرته الأثيرة في أرض مينذوزا، وهو ما زاد في حيرة بين المسيحيّة والبوذيّة وأيهما يختار: "ما أعظمهما، أخون أحدهما إذا اتّبعت تعاليم الآخر؟ كلاهما يدعوان للمحبّة والسّلام.. والتّسامح والخير والمعاملة الحسنة"[31].

إنّ معرفة الديانة الصحيحة ولّدت في فكر عيسى الكثير من الأسئلة، فهو تائه إذا تعلّق الأمر بدينه، فعندما زار المسجد لأوّل مرّة في الكويت في رمضان لم يكن يعرف الصلاة ولكنّه شعر بقرب الله منه كما لم يشعر به من قبل وهنا تظهر خصوصيّة الدّين الإسلامي، فشعوره خاص ومختلف، شعور لم يعرفه مع المسيحيّة أو البوذيّة. وهو ما جعل عيسى يتأكد أنّ الإيمان في القلب ولا داعي للبحث عن دلائل ملموسة، "لا أريد أن أكون مثل أمي التي لا تستطيع الصّلاة

إلاّ أمام الصليب وكأّن الله يسكنه "[32]. فعيسى لا يؤمن بالمسيحيّة فمحل الإيمان هو القلب وقد أدرك أنّ الله موجود وآمن به على طريقته الخاصّة.

7-الاعتراف بالذات إثبات للهويّة: إنّ البحث عن الذّات هو بحث في الحقيقة و"ذات الشّيء نفسه، عينه، فنقول في حدّ ذاته"[33]، فالذّات هي حقيقة الشّخص وصفاته الجوهريّة والهويّة "من الألفاظ المتعدّدة المعاني إذ لها أن تستدعي لفظ التّشابه والمماثلة أو أن يحضر ضمنها معنى الاستمرار والمماهاة مع الذّات بأن تكون هي هي محافظة على مكوناتها وقوام وجودها"[34].

وقد قدّم الكاتب تدرّجا رائعا في وصف رحلة البحث عن الهوّيّة واكتشاف الذّات من خلال عرض الصّراع النّفسي والصّراع الوجودي، فالذّات منشطرة بين بلدين مختلفين وهذا ما يتعارض مع مفهوم الهوّيّة لأنّ الهوّيّة تقتضي عناصر متماسكة تجعل منها وحدة لا تتجزأ لتكون بذلك دليل "انتماء إلى الوطن أو الدين أو الطبقة أو القوميّة أو العقيدة "[35]. فعيسى بدأ يكتشف نفسه أو يبحث عن ذاته انطلاقا من شعوره بالكره لوالده راشد ولبلده الذي ولد فيه الكويت، وأنكر أصوله العربيّة إلى درجة كراهيّة حتى اسمه العربي" أكره اسم عيسى"[36]. فالكويت هي مكان مختلف عن الفلبين وهي بلد العجائب، فعيسى لا يشعر بأي انتماء إلى أبيه وبلده وعند حديث عيسى عن والده راشد يذكر عبارة "ذلك الذي يدعى راشد " فوالده لا يعني له أيّ شيء.

ولكنّ الشّعور بعدم الانتماء إلى الكويت سرعان ما تحوّل إلى نقيضه بعد ما سافر إليه، وشاهد صور أبيه عندما مكث عند غسان لأنّ وصوله إلى الكويت تزامن مع موت الأمير فأجّل غسّان وهو صديق راشد ذهاب عيسى إلى بيت جدّته السيّدة غنيمة بسبب تشاؤمها وتطيرها يقول عيسى "هل أقول بأنّني أحببته من خلال الصورة فقط؟ لا فقد تجاوز شعوري ذلك لم أشعر بمحبة تجاهه وحسب، بل أحببته وأشتقته وأفتقدته وأنا الذي ما رأيته قط "[37]. فشعوره بالحبّ تجاه أبيه تولّد من شعوره بالانتماء ومن اعترافه بوالده وبأصوله العربيّة.

إنّ اعتراف عيسى بأصله كان تحدّيًا منه لأنّ عائلة والده كانت رافضة له ولم يعترفوا به كحفيد لهم. "ما كدت أقبل اسمي الجديد، عيسى الطاروف، متحرّرا من أسمائي وألقابي القديمة، هوزيه وال Arabo وابن العاهرة حتى وجدت من يسيئه أن أحمل اسمه. أنا لست ميندوزا الذي ليس له أب، آنا عيسى، ولي أب اسمه راشد الطاروف"[38]. وهنا يبرز الكاتب هويته باعترافه بأسرة الطاروف ومنه الانتماء إلى الطبقة أو المجتمع الذي تنتمي إليه عائلة الطاروف.

وتظهر الهويّة الوطنيّة في صورة البطل عيسى عندما اعترف بقبوله لعلم الكويت واعتبره علمه بعدما عرف أنّ رفاة والده قد التّحف بعلم الكويت كباقي الشّهداء عند زيارته لقبر أبيه مع غسّان. "سالتّ غسان إن كان والدي التّحف بعلم بلاده مثلهم. هزّ رأسه إيجابا. أحببت العلم، ومنذ تلك اللحظة أصبح علم الكويت علمي"[39].

فقبول العلم الكويتي هو اعتراف بانتمائه للكويت أو الاعتراف بالكويت كوطن له وقد صرّح عيسى بهويته الكويتيّة في قوله:"أنا عيسى راشد الطاروف.. أنا عيسى راشد الطاروف شئتم أم أبيتم.. هذا ما ورثته من أبي"[40] يخاطب جدته السيدة غنيمة. وتأكيده ذلك مرة أخرى في قوله "أنا عيسى راشد الطاروف"[41]، بعدما ألحّت عليه عمته عواطف وعمته نوريّة بضرورة العودة إلى الفلبين.

إنّ رفض عائلة عيسى له وخيانات الناس الذين ضنّ أنّهم أصدقاءه وسّعت من دائرة إحساسه بالضياع وهو ما عجّل قراره بالعودة إلى الفلبين، "حاولت أن أخترق الحواجز والسّدود المنيعة التي ارتفعت بيننا، ولكنّني في كلّ مرة كنت أُطرد ما إنْ أتجاوز حدودي، إنّكم تختلفون في أشياء كثيرة ولكنّكم تتّفقون على رفضي، وكأنّني حبة لقاح أو ذرة غبار حملتها الرّيح إليكم بعد تيه ما إن تسلّلت إليكم عبر أنفاسكم حتى استفزّت لها أنوفكم، لتلفظها أجسادكم عطسا.. تعود

هي إلى التيه من جديد"[42]. كلّ هذه الظروف التي عاشها عيسى دفعته إلى كره الكويت وإزالة الحبّ الذي كان يشعر به للكويت، ليقرّر العودة إلى الفلبين.

8-خاتمة: إنّ التيه الذي عاشه عيسى جعله يجد هويته المفقودة وما كان يبحث عنه، فقد عرّف خالقه بطريقته الخاصة، كما أنّ الهويّة التي لمّح إليها الكاتب هي هويّة من نوع خاص، فحين قرّر عيسى العودة إلى الفلبين في النّهايّة بعد شعوره بالفشل، كان يبحث عن الحبّ وعن العائلة السعيدة بغض النّظر عن المكان وهو ما كان يفتقده في الكويت. يا لها من مفارقة حزينة عاشها عيسى فكلّما اقترب من حلمه خطوة ابتعد عن سعادته بخطوات عديدة فالعائلة هي سعادة الإنسان.

بعد أن أيقن عيسى أنّ عائلته لا تريده كره عائلته وكره حتى نفسه لأنّ عمته نوريّة كانت السبب في طرده من العمل فأصبح مفلسًا بلا مال ولا عمل وأحس بأنّ الكويت تلفظه "يا لهذه الوحدة! الكويت توصد أبوابها الأخيرة.. وأنا الذي حسبتني منها. شعرت فجأة أنّ هذا المكان ليس مكاني"[43]. إنّ ما عاناه في الكويت جعله يقررّ العودة إلى الفلبين بعد أن آمن بنفسه وتعرّف على ذاته، إنّ رحلته بين الكويت والفلبين أسهمت في اكتشاف هويّة جديدة ليست فلبينيّة أو كويتيّة إنّها هوّيّة سرديّة عالمة بكل حيثيات وتفاصيل المجتمعين الفلبيني والكويتي، كما فصّل الكاتب في وصف بعض الأماكن في الفلبين والكويت شارحا نمط الحياة فيها ووجهة نظر أفرادها وتفكيرهم ومعتقداتهم.

9-قائمة المصادر والمراجع:

- أبو حيان التّوحيدي: المقابسات، تح: حسن السندوبي، المطبعة الرّحمانيّة، القاهرة مصر، ط1 ،1929.
- حاتم الورفلي: بول ريكور الهويّة والسرد، دار التّنوير، تونس، (د.ط)،2009.
- حفناوي رشيد بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، في ترويض النص وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتّوزيع، عمان، الأردن، ط1 ،2011.
- حميد لحميداني: بنيّة النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991.
- سعود السنعوسي: ساق البامبو، الدار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط1 2012.
- سعيد علواش: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1985،1.
- شاديّة شقروش: سيميائيّة العنوان في مقام البوح لعبد الله العشي، محاضرات الملتقى الوطني الأوّل السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، يومي6،7، نوفمبر 2000.
- عبد الحق بلعابد: تبات جيرار جنيات من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف الجزائر.ط1، 2008.
- عبد الرّحمن غانمي: الخطاب الرّوائي العربي: قراءة سوسيولسانيّة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (د.ط)،(د.ت).
- عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجيّة الاغتراب، دار غريب القاهرة مصر (د. ط) ،2003.
- عبد المنعم زكريا القاضي: البنيّة السرديّة في الرّوايّة، دراسة في ثلاثيّة غبري شلبي (الأماني لأبي علي حسن ولد خالي)، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط1 2009.
- محمد موسى البلولة الزين: الاغتراب والحنين في الشّعر الهجري، أطروحة دكتوراه إشراف الأستاذ المهدي مأمون أبشر، قسم اللغة العربيّة، جامعة الخرطوم، السودان، 2010.
- المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، دار الشّروق، بيروت، لبنان، 2000.
- والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر، (د.ط)،1998.

10. هوامش:

[1]–شاديّة شقروش: سيميائيّة العنوان في مقام البوح لعبد الله العشي، محاضرات الملتقى الوطني الأوّل السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة بسكرة، يومي6،7، نوفمبر 2000، ص 271.

[2]–عبد الحق بلعابد: عتبات جيرار جنيات من النص إلى المناص، منشورات الاختلاف الجزائر. ط1، 2008، ص69.

[3] –المرجع نفسه، ص 387.

[4]–المرجع نفسه، ص94.

[5]– المرجع نفسه، ص101.

[6]–حاتم الورفلي: بول ريكور الهويّة والسرد، دار التّنوير، تونس، (د.ط)،2009، ص 43.

[7]– سعود السنعوسي: ساق البامبو دار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان ط 1 ،2012 ص 42.

[8] –المرجع نفسه، ص 330.

[9] –المرجع نفسه، ص 71.

[10] –المرجع نفسه، ص 17.

[11] –حميد لحميداني: بنيّة النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص 530.

[12] –سعيد علواش: معجم المصطلحات الأدبيّة المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1 ،1985، ص 126 ،127.

[13]–عبد الرّحمن غانمي: الخطاب الرّوائي العربي: قراءة سوسيولسانيّة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، (د.ط)،(د.ت)، ص 11.

[14]–والاس مارتن: نظريات السرد الحديثة، تر: حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، مصر، (د.ط)،1998، ص 152.

[15]–عبد المنعم زكريا القاضي: البنيّة السرديّة في الرّوايّة، دراسة في ثلاثيّة غبري شلبي (الأماني لأبي علي حسن ولد خالي)، عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة، ط1 2009، ص68.

[16]–عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجيّة الاغتراب، دار غريب القاهرة مصر (د.ط)،2003، ص 81.

[17]–أبو حيان التّوحيدي: المقابسات، تح: حسن السندوبي، المطبعة الرّحمانيّة، القاهرة مصر، ط1929،1، ص 106.

[18]– محمد موسى البلولة الزين: الاغتراب والحنين في الشّعر الهجري، أطروحة دكتوراه إشراف الأستاذ المهدي مأمون أبشر، قسم اللغة العربيّة، جامعة الخرطوم، السودان. 2010 ص 182.

[19]– الرّوايّة سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص41.

[20]– المرجع نفسه، ص51.

[21]– المرجع نفسه، ص 108 .

[22]– المرجع نفسه، ص321 .

[23]– المرجع نفسه، ص322.

[24]– المرجع نفسه، ص281.

[25]– المرجع نفسه، ص281.

[26]– المرجع نفسه، ص163.

[27]– المرجع نفسه، ص34.

[28]– حاتم الورفلي: بول ريكور الهويّة والسرد، ص 43.

[29]–سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص65.

[30]– المرجع نفسه، ص66.

[31]– المرجع نفسه، ص146.

[32]– المرجع نفسه، ص299.

[33]– المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، دار الشّروق، بيروت، لبنان، 2000، ص465.

[34]– حاتم الورفلي: بول ريكور الهويّة والسرد، ص37.

[35]– حفناوي رشيد بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، في ترويض النص وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتّوزيع، عمان، الأردن، ط1 ،2011، ص 13.

[36]– سعود السنعوسي: ساق البامبو، ص72.

[37]– المرجع نفسه، ص202.

[38]– المرجع نفسه، ص225.

[39]– المرجع نفسه، ص252

[40]– المرجع نفسه، ص287.

[41]– المرجع نفسه، ص372.

[42]– المرجع نفسه، ص386.

[43]– المرجع نفسه، ص383.